

مؤشرات تغييب الوسطية

الأستاذ إبراهيم شابو

لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ هذه الوسطية التي تعتبر تياراً أصيلاً مميزاً للأمة عبر تاريخها العتيق ومجدها التليق، رغم ما تخلل بعض مساراتها من حالات استثنائية في الميل عن هذه الوسطية غلوا أو إفراطاً أو تفريطاً، ويريد البعض بجهل والبعض الآخر بسوء قصد أن يجعل الاستثناء قاعدة، وأمام هذا الوضع كان لزاماً على العلماء والباحثين توضيح الوسطية باعتبارها - كما اتفق عليه القائمون على هذا الملتقى المبارك بأن الوسطية قيمة قرآنية- وهذه المحاضرة لا تخرج عن نطاق ذلك في توضيح المفاهيم والإشكالات المرتبطة بكلمة الوسطية لغة وشرعاً،

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله الطاهرين وصحبه أجمعين. شاء الله أن يكون الرسول - ﷺ - خاتماً للأنبياء والمرسلين، شاهداً على الأمة التي ميزها الله بالوسطية لتكون شاهدة على الناس فقال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كُنْتَ لَكِبْرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضْلِعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ

أولا : مفهوم المؤشرات

المؤشرات كلمة كثيرة الاستعمال في الحقل الاقتصادي بمعنى البند الإحصائي يبين تغير السعر والقيمة، وتستعمل الكلمة للدلالة على أداة ضبط إشارة محطة إذاعية لتوضيح الصوت أو تحويله. (انظر المعجم)

أما المعنى المقصود في موضوع ورقتنا هو المعنى اللغوي الغالب الدال على العلامة فمؤشرات تغييب الوسطية تدرس علامات وملامح غياب الوسطية تصورا وعملا وسلوكا، فالمؤشر هو أداة للقياس والتشخيص يسمح بالتقويم في المعالجة التربوية والتعليمية.

ثانيا: الوسطية وإشكالات

المفهوم

1 - الملاحظات المنهجية التي تتعلق بكلمة الوسطية منها:

وفي اصطلاح العلماء، وما هي المعايير والملامح التي تبرز هذه الوسطية رغم تعدد آراء العلماء في تحديدها.

ولما كان مصطلح المؤشرات في بعض معانيه يطلق على التقويم، تناولت المحاضرة مؤشرين أساسيين فتغييب الوسطية مؤشر الجهل في فهم النصوص الشرعية ومقاصدها.

أما المؤشر الثاني تناول الظاهرة الشاذة -ظاهرة الغلو- التي يريد الآخر خاصة الغرب أن يضخما بل يلصقها بالإسلام وكل المسلمين، ومن ثم وجب التنبيه على دور الإعلام في بيان الوسطية، وهذا الملتقى المبارك وهذه المجلة وسائل إعلامية في إبراز وسطية السلام.

وفق الله الجميع وجعلهم متمسكين بالصراط المستقيم والحمد لله رب العالمين.

والمعاصرة، الفتوى بين الانضباط والتسيب، الاجتهاد بين الانضباط والانفراط، الثقافة الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ثقافتنا بين الانغلاق والانفتاح... ناهيك عن كتبه التي تحمل الكلمة نفسها مثلاً الوسطية في الإسلام).

كما نجد الكلمة في أخبار الإعلاميين، وكلام السياسيين، وعناوين لمؤسسات واتجاهات، ورواج الكلمة عند كثير من الناس خاصة المثقفين المتخصصين فكراً زرع بلبلة في تحديد المصطلح، فهناك من يبحث في الوسطية معيار (انظر بحث الدكتور عبد الرحمان بن معلا اللويحق الموسوم «الوسطية معيار») وهناك من وقف وقفة فقه وتأمل مع جملة الوسطية في الدين، وهناك من ذهب إلى منحى المصطلح كما فعل إسلام فرحات.

• كلمة الوسطية، كلمة شرعية وردت في الوحيين القرآن الكريم والسنة النبوية، وعليه فإن تأصيل المصطلح يستدعي استقراء النصوص الشرعية تصريحاً وتلميحاً.

• رغم عمق معنى الوسطية إلا أنها نادرة الاستعمال بل الكلمات الأكثر تداولاً التيسير والرفق والسماحة والاعتدال ناهيك عن أضدادها خاصة الغلو والتشدد والعسر. (انظر مراحل تطور مفهوم الوسطية في الفكر المعاصر بحث مقدم في مؤتمر الوسطية)

• عرفت كلمة الوسطية في نهاية القرن الماضي وبدايات القرن الحالي فصارت عناوين لكتب العلماء والمفكرين (وأشهر من كانت كلمة بين في أسماء إصداراته الدكتور القرضاوي، وأمثلة ذلك الفقه الإسلامي بين الأصلة

والطاء: بناء صحيح يدلّ على العدل والنّصف.

وأعدل الشيء: أوسطه، ووسطه. قال الله عزوجل: ﴿أُمَّةٌ وَسَطًا﴾ البقرة: الآية [143]. ويقولون: ضربتُ وَسَطَ رأسه - بفتح السين - ووسط القوم - بسكونها -، وهو أوسطهم حسبًا - إذا كان في واسطة قومهم وأرفعهم محلا وتأتي كلمة وسط بفتح السين وسكونها، وفتحها أكثر استعمالا.

ويمكن إجمال المعاني التي جاءت تدلّ عليها هذه الكلمة فيما يلي:
* (وسط) بسكون السين تكون ظرفًا بمعنى (بين)، قال في لسان العرب: وأمّا الوسط بسكون السين فهو ظرف لا إسم، جاء على وزن نظيره في المعنى وهو (بين)، تقول: جلست وسط القوم، أي: بينهم.

• لما كانت كلمة الوسطية تستخدم عند البعض كرد فعل لإفrazات تيارات التطرف والغلو فغلب في كتابات هؤلاء الحديث عن نبذ الغلو وتبعية مظاهره وملاحمه.

• الحديث عن الوسطية هو حديث عن ميزة لسمة، وعن السمة الغالبة البارزة فيها؛ أما غيابها عند البعض داخليا وخارجيا ما هو إلا استثناء ونشاز يريد البعض تضخيمه وإبرازه وتبسيط الأضواء عليه بل إلصاقه بالدين الإسلامي الحنيف.

هذه ملاحظات لا تمنع من الوقوف على معنى الوسطية تصريحاً وتلميحا.

2 - الوسطية في اللغة :

جاءت كلمة (وسط) في اللغة بعدة معانٍ، لكنها مُتقاربة في مدلولها. قال ابن فارس: (وسط): الواو والسين

للشيء بين الجيد والردىء.

قال الجوهري: «يقال: شيء وسط: أي بين الجيد والردىء. ودليل ماذهب إليه الجوهري ما ورد في الحديث: «ولكن من وسط أموالكم فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره»

* ويقال: (وسط) لما له طرفان مذمومان، يراد به ما كان بينهما سالمًا من الذمّ، وهو الغالب.

قال الراغب: وتارة يُقال لما له طرفان مذمومان ومثال ذلك: السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور و(الوسيط): المتوسط بين المتخاصمين و(التوسط): بين الناس من الوساطة وهي الشفاعة.

و(التوسيط): أي تجعل الشيء في الوسط و(التوسيط): - أيضًا - قطع الشيء نصفين، و(وسوط الشمس): توسّطها السماء و وسوطا بمعنى

* وتأتي - وسط بالفتح - اسمًا لما بين طرفي الشيء وهو منه، ومن ذلك: قبضت وسط الجبل، وكسرت وسط القوس، وجلست وسط الدار.

* وتأتي - بالفتح أيضًا - صفة، بمعنى خيار، وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله وخياره: كوسط المرعى خير من طرفيه، ومرعى وسط أي: خيار. وواسطة القلادة: الجواهر الذي وسطها، وهو أجودها، ورجل وسط ووسيط: حسن.

* وتأتي وسط - بالفتح - بمعنى عدل، قال ابن فارس: وسط: بناء صحيح يدلّ على العدل، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه. وقال ابن منظور: ووسط الشيء وأوسطه: أعدله. وقال الفيروزآبادي: الوسط - محرّكة - من كل شيء: أعدله.

* وتأتي (وسط) بالفتح - أيضًا -

في إطار التصريح في خمسة مواضع:

* قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة: الآية [143].

وقد جاء تفسير هذه الآية عن رسول الله - ﷺ - كما روى ذلك البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما أأتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة: [143] فذلك قول

الله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونِ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة: [143]، والوسط

المتوسط المعتدل ووسيطا الحسيب الشريف والوسيط المتوسط بين الناس. والوسط الرفعة والمكانة العلية والمكان الوسط لا يصل إليه العدو بسهولة، ولذلك صار معنى العزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفا فأطلقوه على الخيار والنفيس كناية فأوسط الشيء أفضله وخياره و(واسطة القلادة): الجوهر الذي في وسطها، وهو أجودها.

من خلال ذلك كله يتضح أن اللفظة كيفما تصرفت فهي لا تخرج في معناها عن معاني العدل والفضل والخيرية، والنصف والبيئية، والتوسط بين الطرفين.

3 - الوسطية في القرآن الكريم والسنة النبوية :

- الوسطية في القرآن الكريم :
وردت كلمة وسط في القرآن الكريم

الوسطية التي قصدها الشارع دائرة مع عنصرين لا بد من توافرها: الخيرية - البينية، فالجمع بين هذين العنصرين يثمر لنا الوسطية التي مدحها الله تعالى.

* قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ البقرة 238.

قال الخلوئي الحنفي:

«والصلاة الوسطى أي المتوسطة بينها على أن تكون الوسطى صفة مشبهة، أو الفضلى منها على أن تكون أفعل تفضيل تأنيث الأوسط وأوسط الشيء خيره وأعدله وهي صلاة العصر؛ لأنها بين صلاتي ليل وصلاتي نهار، ولقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله قبورهم وبيوتهم ناراً) وفضلها لكثرة اشتغال الناس في

العدل» وهو أحد المعاني المرادة ولكن لا يمنع من أن يكون هناك معاني أخرى. قال الطبري في سياق تفسير هذه الآية: «وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين مثل (وسط الدار) محرك الوسط مثقله، غير جائز في سينه التخفيف. وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيل هم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها. وقد جرى على منواله القرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، ومن المعاصرين من جعل

وقتها بتجاراتهم ومكاسيهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار، وقد نقل القول بكون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، ابن الجوزي في تفسيره ونسبه إلى جماهير أهل العلم، وذكر منهم علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبا أيوب، وابن عمر في رواية، وسمرة بن جندب، وأبا هريرة، وابن عباس في رواية عطية، وأبا سعيد الخدري، وعائشة في رواية، وحفصة، والحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء في رواية، وطاووس، والضحاك، والنخعي، وعبيد بن عمير، وزر بن حبيش، وقتادة، وأبا حنيفة، ومقاتل في آخرين.

* قوله تعالى ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْمَ أَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَيِّحُونَ﴾ سورة القلم 28، والأوسط هنا بمعنى الأحسن والأرجح عقلاً ورأياً، أو الأوسط سناً، أو الأعدل والأفضل.

* قوله تعالى: ﴿فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ سورة العاديات 5، والمعنى توسط جموع الأعداء.

فهذه الآيات جاء فيها لفظ الوسط صريحاً لا تخرج عن المعنى اللغوي

وقوله تعالى: ﴿... فَكَفَّرْتَهُمْ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ...﴾ سورة المائدة 89، والمراد بالأوسط هنا على

* قوله تعالى: ﴿... فَكَفَّرْتَهُمْ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ...﴾ سورة المائدة 89، والمراد بالأوسط هنا على

بها من صفات العدل، القسط،
الأنصاف...).

* فمن الأحاديث التي جاء فيها
لفظ الوسط صريحاً قوله عليه
الصلاة والسلام: «إذا سألتكم الله
فأسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة
وأعلى الجنة»، وقوله - ﷺ -: «إذا
وضع الطعام، فخذوا من حافته،
وذروا وسطه، فإن البركة تنزل في
وسطه» فهذان حديثان جاء ذكر
الوسط فيهما صريحاً ومعناه ظاهر وإن
اختلف سياقهما في الحديثين، فالمراد
بالأوسط في الحديث الأول الأعدل
والأفضل، فيكون موافقاً لقوله تعالى:
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾
البقرة: [143]، أما الحديث الثاني
فعلته ظاهرة المعنى حيث جاء التصريح
بكون البركة تنزل في وسطه أو في ذروته
وأعلاه.

لأصل الكلمة، إلا أن هناك نصوصاً
كثيرة جاء فيها معنى الوسطية في إطار
ألفاظ أخرى؛ لتدل على هذا المعنى
وفق منهجية قرآنية واضحة، والباحث
لا يسعه أن يقف عند هذه النصوص
بأجمعها؛ لكونها كثيرة، (للاستزادة
انظر موسوعة نضرة النعيم في أخلاق
الرسول الكريم المجلد الرابع ص
1352).

- الوسطية في السنة النبوية الشريفة:

إن المتتبع لنصوص السنة النبوية
يظهر له أن السنة أتت بلفظ الوسط
في إطاره الصريح، نهت عليه كذلك
في سياق ألفاظ أخرى لا تخرج عن
مقتضى معناه ومقصده وإن اختلفت
معه في اللفظ (للاستزادة انظر موسوعة
نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم
المجلد الرابع ص 1352 وما يتعلق

فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإنني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني). قال ابن بطال في شرح هذا الحديث: «في هذا الحديث من الفقه أن النكاح من سنن الإسلام، وأنه لا رهبانية في شريعتنا، وأن من ترك النكاح رغبة عن سنة محمد عليه السلام فهو مذموم مبتدع... وفيه الاقتداء بالأئمة في العبادة، والبحث عن أحوالهم وسيرهم في الليل والنهار، وأنه لا يجب أن يتعدى طرق الأئمة

* قوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم هدياً قاصداً عليكم هدياً قاصداً فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه»، وقوله - ﷺ -: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»، والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، ولا شك أن هذين الحديثين فيهما علم من أعلام النبوة كما أشار إلى ذلك ابن المنير، فالشواهد الحسية أظهرت أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحموده، بل المراد منع الإفراط المؤدي إلى الملل، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته.

* حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ،

وَالْبُعْدِ عَنْهُ، فَكَلَّمَا اِزْدَادَ مِنْهُ بُعْدًا
اِزْدَادَ إِلَى الْوَسْطِ تَقَرُّبًا؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ
أَبْعَدَ الْجِهَاتِ وَالْمَقَادِيرِ وَالْمَعَانِي مِنْ كُلِّ
طَرَفَيْنِ وَسَطُهَا، فَإِذَا كَانَ فِي الْوَسْطِ،
فَقَدْ بَعُدَ عَنِ الْأَطْرَافِ الْمَذْمُومَةِ بِقَدْرِ
الْإِمْكَانِ.

قَالَ الشَّاطِئِيُّ . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :
الشَّرِيعَةُ جَارِيَةٌ فِي التَّكْلِيفِ بِمُقْتَضَاهَا
عَلَى الطَّرِيقِ الْوَسْطِ الْأَعْدَلِ الْأَخْذِ مِنْ
الطَّرَفَيْنِ بِقِسْطٍ لَا مَيْلَ فِيهِ، الدَّخِلِ
تَحْتَ كَسْبِ الْعَبْدِ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ
عَلَيْهِ وَلَا انْجِلَالٍ؛ بَلْ هُوَ تَكْلِيفٌ جَارٍ
عَلَى مُوَازَنَةٍ تَقْتَضِي فِي جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ
غَايَةَ الْاعْتِدَالِ....، فَإِنْ كَانَ التَّشْرِيعُ
لَأَجْلِ انْجِرَافِ الْمُكَلَّفِ، أَوْ وُجُودِ
مَظْنَنَةِ انْجِرَافِهِ عَنِ الْوَسْطِ إِلَى أَحَدِ
الطَّرَفَيْنِ، كَانَ التَّشْرِيعُ رَادًّا إِلَى الْوَسْطِ
الْأَعْدَلِ، لَكِنْ عَلَى وَجْهِ يَمِيلُ فِيهِ إِلَى
الْجَانِبِ الْآخَرِ لِيُخْصَلَ الْاعْتِدَالُ فِيهِ،
وَفِعْلُ الطَّيِّبِ الرَّفِيقِ يَحْمِلُ الْمَرِيضَ

الذي وضعهم الله ليقْتدَى بهم في
الدين والعبادة، وأنه من أراد الزيادة
على سيرهم فهو مفسد، فإن الأخذ
بالتوسط والقصد في العبادة أولى
حتى لا يعجز عن شيء منها، ولا ينقطع
دونها».

• الوسطية في تعريفات العلماء

التوسط هو القصد المصون عن
الإفراط والتفريط بان يتحرى المسلم
الاعتدال ويبتعد عن التطرف قولاً
وفعلاً بحيث لا يقصر ولا يغالي (انظر
الموسوعة ص 1353).

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . فِي
بَيَانِ أَفْضَلِيَّةِ التَّوَسُّطِ: كُلُّ خَصْلَةٍ
مَحْمُودَةٍ لَهَا طَرَفَانِ مَذْمُومَانِ:
فَالسَّخَاءُ وَسَطٌ بَيْنَ الْبُخْلِ وَالتَّبَذِيرِ،
وَالشَّجَاعَةُ وَسَطٌ بَيْنَ الْجُبْنِ وَالتَّهَوُّرِ،
وَالْإِنْسَانُ مَأْمُورٌ أَنْ يَتَجَنَّبَ كُلَّ وَصْفٍ
مَذْمُومٍ، وَتَجَنَّبُهُ يَكُونُ بِالتَّعَرِّيِ مِنْهُ،

الأصلُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَالْمَعْقِلُ الَّذِي
يُلْجَأُ إِلَيْهِ⁽¹⁾.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : [إِنَّ
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي وَصَّانا اللَّهُ بِهِ
وَبِاتِّبَاعِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَصْحَابُهُ ، وَهُوَ قَصْدُ
السَّبِيلِ ، وَمَا خَرَجَ عَنْهُ فَهُوَ مِنَ السَّبِيلِ
الْجَائِرَةِ ، وَالْجَائِرُ عَنْهُ ، إِمَّا مُفْرِطٌ ظَالِمٌ
أَوْ مُجْتَهِدٌ مُتَأَوِّلٌ أَوْ مُقَلِّدٌ جَاهِلٌ ، وَكُلُّ
ذَلِكَ قَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا
الْاِقْتِصَادُ وَالْاِعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ وَعَلَيْهِمَا
مَدَارُ الدِّينِ] .

وَقَالَ . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : مَنْ كِيدِ
الشَّيْطَانِ الْعَجِيبِ : أَنَّهُ يُشَامُ النَّفْسَ ،
حَتَّى يَعْلَمَ أَيُّ الْقَوَتَيْنِ تَغْلِبُ عَلَيْهِمَا :
أَقْوَةُ الْإِفْدَامِ وَالشَّجَاعَةِ أَمْ قُوَّةُ
الْإِنْكَفَافِ وَالْإِحْجَامِ وَالْمُهَانَةِ . وَقَدْ
اِقْتَطَعَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ فِي
هَذَيْنِ الْوَادِيَيْنِ : وَادِي التَّقْصِيرِ وَوَادِي

عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُهُ بِحَسَبِ حَالِهِ
وَعَادَتِهِ ، وَقُوَّةُ مَرَضِهِ وَضَعْفِهِ ، حَتَّى
إِذَا اسْتَقَلَّتْ صِحَّتُهُ هَيَأَ لَهُ طَرِيقًا
فِي التَّدْبِيرِ وَسَطًا لَانِقًا بِهِ فِي جَمِيعِ
أَحْوَالِهِ ، فَهَكَذَا تَجِدُ الشَّرِيعَةَ أَبَدًا فِي
مَوَارِدِهَا وَمَصَادِرِهَا جَارِيَةً عَلَى هَذَا
التَّرْتِيبِ الْوَسْطِ الْمُعْتَدِلِ ، فَإِذَا نَظَرْتَ
إِلَى كُلِّيَّةٍ مِنْ كُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ فَتَأَمَّلْتَهَا
وَجَدْتَهَا حَامِلَةً عَلَى التَّوَسُّطِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ
مَيْلًا إِلَى جِهَةِ طَرَفٍ مِنَ الْأَطْرَافِ فَذَلِكَ
لِعِلَاجِ انْحِرَافٍ وَاقِعٍ أَوْ مُتَوَقَّعٍ فِي أَحَدِ
الْجَانِبَيْنِ ، فَطَرَفُ التَّشْدِيدِ . وَعَامَّةً مَا
يَكُونُ فِي التَّخْوِيفِ وَالتَّزْهِيبِ وَالتَّزْجُرِ .
يُؤْتَى بِهِ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ
الْانْحِلَالُ فِي الدِّينِ ، وَطَرَفُ التَّخْفِيفِ .
وَعَامَّةً مَا يَكُونُ فِي التَّرْجِيَةِ وَالتَّرْغِيبِ
وَالْتَّرْخِيسِ . يُؤْتَى بِهِ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ غَلَبَ
عَلَيْهِ الْحَرَجُ فِي التَّشْدِيدِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ
انْحِرَافٌ إِلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ رَأَيْتَ التَّوَسُّطَ
لَانِحًا ، وَمَسْلَكَ الْاِعْتِدَالِ وَاضِحًا ، وَهُوَ

هَذَا فِي بَابٍ يَطُولُ حَصْرُهُ. وَأَمَّا أَهْلُ
السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْفِرْقِ فَهُمْ وَسَطٌ
كَذَلِكَ، فَهُمْ فِي بَابِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ
وَسَطٌ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَيُعْطِلُونَ حَقَائِقَ
مَا نَعَتَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ، حَتَّى يُشَبِّهُوهُ
بِالْعَدَمِ وَالْمَوَاتِ، وَبَيْنَ أَهْلِ (التَّمْثِيلِ
وَالْتَّشْبِيهِ) الَّذِينَ يَضْرِبُونَ لَهُ الْأَمْثَالَ
وَيُشَبِّهُونَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ . وَأَمَّا هُمْ:
فَيُؤْمِنُونَ بِمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا
وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ
وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَكْثِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ .

ثالثاً: ملامح ومعايير الوسطية

ذكرنا أنفاً في الإشكالات المتعلقة
بمصطلح الوسطية أن بعض الكتابات
بقصد أو غير قصد كانت رد فعل لظهور
تيارات التطرف والغلو، مما ألزم بيان
هذه الوسطية في ملامح محددة اجتهد
كل كاتب في تعدادها، أوصلها الشيخ

الْمُجَاوِزَةَ وَالتَّعَدِّيَّ. وَالْقَلِيلُ مِنْهُمْ جِدًّا
الثَّابِتُ عَلَى الصِّرَاطِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَهُوَ الْوَسَطُ)

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ. رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: أَهْلُ
السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: [الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ]
وَسَطٌ فِي النَّحْلِ كَمَا أَنَّ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ
وَسَطٌ فِي الْمَلَلِ، فَأَمْسَلِمُونَ وَسَطٌ فِي
أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ،
لَمْ يَغْلُوا فِيهِمْ كَمَا غَلَتِ النَّصَارَى، وَلَمْ
يَجْفُوا عَنْهُمْ كَمَا جَفَتِ الْيَهُودُ . وَهُمْ
وَسَطٌ فِي شَرَائِعِ دِينِ اللَّهِ، فَلَمْ يُحَرِّمُوا
عَلَى اللَّهِ أَنْ يَنْسَخَ مَا شَاءَ وَيَمْحُو مَا
شَاءَ وَيُثَبِّتَ مَا شَاءَ، كَمَا قَالَتْهُ الْيَهُودُ.
وَلَا جَوْرُوا لِأَكَابِرِ عُلَمَائِهِمْ وَعِبَادِهِمْ أَنْ
يُغَيِّرُوا دِينَ اللَّهِ فَيَأْمُرُوا بِمَا شَاءُوا وَيَنْهَوْا
عَمَّا شَاءُوا كَمَا يَفْعَلُهُ النَّصَارَى. وَهُمْ
كَذَلِكَ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى:
فَإِنَّ الْيَهُودَ وَصَفُوا اللَّهَ تَعَالَى بِصِفَاتِ
الْمَخْلُوقِ النَّاقِصَةِ، وَالنَّصَارَى وَصَفُوا
الْمَخْلُوقَ بِصِفَاتِ الْخَالِقِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ،

القرضاوي في معالم الوسطية إلى
عشرة، وهي :

- 1 - السمة الأولى: الخيرية.
- 2 - السمة الثانية: العدل.
- 3 - السمة الثالثة: اليسر ورفع
الرجح.
- 4 - السمة الرابعة: الحكمة.
- 5 - السمة الخامسة: الاستقامة.
- 6 - السمة السادسة: البينة.

رابعاً: مؤشرات تغييب الوسطية

على ضوء ما سبق يكون الحديث
عن مؤشرات تغييب الوسطية حديثاً
عن أسباب غياب ملامح ومعايير
الوسطية السابقة الذكر، فضلاً عن
معوقاتها المرتبطة في تقديرنا بظاهرتين:
ظاهرة الجهل وظاهرة الغلو.

- 1 - تبني التسيير والتبشير.
- 2 - الجمع بين السلفية والتجديد.
- 3 - المصالحة بين السلفية
والتصوف.
- 4 - الاعتدال بين الظاهرية والمؤولة.
- 5 - الموازنة بين الثوابت والمتغيرات.
- 6 - مراعاة الواقع.
- 7 - الدعوة إلى التسامح والتعايش.
- 8 - تبني الشورى والحرية.
- 9 - إنصاف المرأة.
- 10 - إحياء الاجتهاد.

(انظر بحث الوسطية والاعتدال
للدكتور القرضاوي مؤتمر الوسطية).
وهي عند البعض ملامح وسمات
ست:

1 - مؤشر الجهل

يقول ابن تيمية: «والجهل والظلم هما أصل كل شر، قال سبحانه ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ سورة الأحزاب 72.

ومظاهر الجهل في الأمة متعددة، أبرز مؤشراتها

• الجهل بالكتاب والسنة :

ولا بقصد بالجهل عدم قراءة القرآن الكريم أو عدم معرفة أحاديث الرسول ﷺ بل يقصد بالجهل فضلاً عما تقدم سوء الفهم للنص الشرعي في سياقه سابقاً ولحاقاً فتجد ذلك واضحة في غياب الوسطية عند هؤلاء بحمل آيات الكفار والمنافقين على المسلمين، فصاحب ذلك ظاهرة التكفير.

• والجهل بمنهج العلماء في فهم النصوص الشرعية:

فالذين يحيدون عن منهج العلماء في التلقي والفهم يتبعون عن الوسطية فكراً ومنهاجا باتباع رؤوسا جهالاً زعماً في مرجعيتهم، روى البخاري في صحيحه في كتاب العلم كيف يقبض الله العلم، حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

• الجهل بمقاصد الشريعة وأهدافها :

العبرة ليست بالمباني على أهميتها فالغاية بالمعاني والمقاصد.

معانيها، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإن القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور وبياناً للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ؛ إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة». وقال الشاطبي مبيناً سبب الانحراف والضلال والتفرق: «وهو الجهل بمقاصد الشريعة والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت أو الأخذ فيها بالنظر الأول ولا يكون ذلك من راسخ في العلم. ألا ترى أن الخوارج كيف خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمى؟ لأن رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يعني -والله

والذي يقف على النصوص الشرعية يجد مساحة واسعة فيها تحدثت عن قيمة العلم ومكانة العلماء، ويقابلها ذم الجهل وأهله، وهي أشهر من أن تساق في هذا الموضع، ولكن يكفيك أن نسوق حديثاً للنبي ﷺ يظهر كيفية انتشار الجهل بين الناس وما يحدثه من آثار وخيمة في المجتمع المسلم، ومنها بطبيعة الحال غياب الوسطية موضوع بحثنا، قال عليه الصلاة والسلام من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه-: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» قال شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك: «قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن

لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ... ﴿سورة النساء 171﴾، وفي الحديث: «إياكم والغلو في الدين» أي: التشدد فيه ومجاوزة الحدّ، كالحديث الآخر: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق».

- وغلا السهم نفسه: ارتفع في ذهابه وجاوز المدى، وكلّه من الارتفاع والتّجاوز. ويقال للشّيء إذا ارتفع: قد غلا، وغلا النّبت: ارتفع وعظم. (انظر الموسوعة ص 5114)

وهناك ألفاظ ذات صلة بالغلو ككلمة التطرف، التنطع، التشدد، العنف، التعسير، الطغيان... (انظر موسوعة نضرة النعيم ص 5114).

كلمة الغلو في القرآن الكريم:

وقد وردت في القرآن الكريم آيتان فيهما النّهي عن الغلو بلفظه الصّريح، قال تعالى في سورة النساء 171 ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا

أَعْلَمُ - أَنَّهُمْ لَا يَتَفَقَهُونَ بِهِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى قُلُوبِهِمْ؛ لِأَنَّ الْفَهْمَ رَاجِعٌ إِلَى الْقَلْبِ، فَإِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ يَحْصُلْ فِيهِ فَهْمٌ عَلَى حَالٍ، وَإِنَّمَا يَقِفُ عِنْدَ مَحَلِّ الْأَصْوَاتِ وَالْحُرُوفِ فَقَطْ وَهُوَ الَّذِي يَشْتَرِكُ فِيهِ مَنْ يَفْهَمُ وَمَنْ لَا يَفْهَمُ،

2 - مؤشر الغلو:

• كلمة الغلو في اللغة:

عرّف أهل اللغة الغلو بأنّه مجاوزة الحدّ، فقال ابن فارس: غلّو: الغين واللام والحرف المعتلّ أصل صحيح يدلّ على ارتفاع ومجاوزة قدر، يُقال: غلا السّعري غلّو غلاء، وذلك ارتفاعه، وغلا الرّجل في الأمر غلّوا، إذا جاوز حدّه، وغلا بسهمه غلّوا إذا رمى به أقصى غايته وقال الجوهريّ: وغلا في الأمر يغلو غلّوا، أي جاوز فيه الحدّ. وقال في لسان العرب: وغلا في الدّين والأمر يغلو غلّوا: جاوز حدّه، وفي التّنزيل: ﴿...﴾

المائدة، في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ
 الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
 غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ
 قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا
 كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ
 السَّبِيلِ﴾ قال الطبري: يقول: «لا
 تُفْرِطُوا في القول فيما تدينون به من
 أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحق إلى
 الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أو هو
 ابنه، ولكن قولوا: هو عبد الله وكلمته
 ألقاها إلى مريم، وروح منه».

• كلمة الغلو في السنة:

وقد وردت بعض الأحاديث التي
 تنهى عن الغلو، وذكر بعضها يساعد
 على فهم معناه وحده:

- عن ابن عباس - رضي الله عنهما -
 قال: قال رسول الله، ﷺ غداة جمع:
 «هلم القط لي الحصى»، فلقطت له
 حصيات من حصى القذف، فلما

تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى
 اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ... ﴿١٠﴾

قال الطبري: «يقول: لا تجاوزوا
 الحق في دينكم فَتُفْرِطُوا فيه.» وأصل
 الغلو في كل شيء مجاوزة حده الذي هو
 حده، يقال منه في الدين: قد غلا فهو
 يغلو غلواً.

وقال ابن الجوزي في تفسير هذه
 الآية: «والغلو: الإفراط ومجاوزة الحد،
 ومنه: غلا السعر، وقال الزجاج: الغلو:
 مجاوزة القدر في الظلم.

وغلو النَّصارى في عيسى قول
 بعضهم: هو الله، وقول بعضهم: هو ابن
 الله، وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة.

وعلى قول الحسن: غلو اليهود فيه
 قولهم: إنه لغير رشده. وقال بعض
 العلماء: لا تغلو في دينكم بالزيادة في
 التشدد فيه».

أما الآية الثانية فجاءت في سورة

شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم،
فتلك بقاياهم في الصوامع والديار
﴿...وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
عَلَيْهِمْ...﴾ سورة الحديد 27.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ،
قال: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ
الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا
أَبْشُرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ،
وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ». وفي لفظ: «القصْد
القصْد تَبْلَغُوا» قال ابن حَجَرٍ: والمعنى:
لا يَتَعَمَّقُ أَحَدٌ فِي الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ،
وَيَتْرَكَ الرَّفْقَ إِلَّا عَجْزًا وَانْقِطَعَ فَيُغْلَبُ.

قال ابن رجب: والتَّسْدِيدُ العمل
بِالسَّدَادِ، وَهُوَ الْقَصْدُ وَالتَّوَسُّطُ فِي
الْعِبَادَةِ، فَلَا يَقْصِرُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، وَلَا
يَتَحَمَّلُ مِنْهَا مَا لَا يُطِيقُهُ.

- وروى الإمام أحمد في مسنده عن
عبد الرحمن بن شبل أن رسول الله،
ﷺ قال: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَلَا تَأْكُلُوا بِهِ،

وَضَعْنَنَ فِي يَدِهِ قَالَ: «نَعَمْ بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ
وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ
كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ». قال ابن
تيميَّة رحمه الله: «وهذا عامٌّ في جميع
أنواع الغلوِّ في الاعتقادات والأعمال،
وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار،
وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة
الكبار بناء على أنَّها أبلغ من الصَّغار،
ثم علَّله بما يقتضي مجانية هديهم، أي
هدي من كان قبلنا إبعادًا عن الوقوع
فيما هلكوا به، وأنَّ المشاركة لهم في
بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك».

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال
رسول الله، ﷺ «هَلِكُ الْمُتَنَطِّعُونَ» قالها
ثلاثًا. قال النَّوَوِيُّ: هَلِكُ الْمُتَنَطِّعُونَ: أي
الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُغَالُونَ الْمُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ
فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول
الله، ﷺ كان يقول: «لَا تَشَدِّدُوا عَلَى
أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدِّدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا

- قال ابن حجر: المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد.

- قال ابن تيمية: مجاوزة الحد بأن يزداد في الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق.

ويمكن أن نتبع ملامح الغلو فيما يلي:

- تفسير النصوص تفسيراً متشدداً يتعارض مع السمة الغالبة للشرعة الإسلامية ومقاصدها الأساسية، ويندرج تحت هذه الاختيارات الفقهية الشاذة المخالفة للمذاهب المشهورة والمعتمدة:

- تكلف التعمق في معاني التنزيل.

- إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله عبادة وترهباً.

- أن يكون الغلو متعلقاً بالموقف من الآخرين الوصف بالتفسيق والتكفير رفض الحوار وقبول الرأي الآخر.

ولا تستكثروا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلوفيه»

- عنه، ﷺ أنه قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين». وكلّ هذه الأحاديث تدلّ على أن الغلوّ خروج عن المنهج ومجاوزة للحدّ، وفعل ما لم يشرعه الله ولا رسوله، ﷺ.

• تعريف العلماء للغلو:

- قال القرطبي: «الغلو في الدين الإفراط فيه كما أفرطت اليهود والنصارى في عيسى غلو اليهود في عيسى قولهم ليس ولد رشد، وغلو النصارى قولهم أنه إله.

- قال المناوي: الغلو هو مجاوزة الحد الغلوفي الدين التصلب والتشدد فيه ومجاوزة الحد.

خاتمة

يقتضي وضع برامج تعليمية وعملية من أجل استغلال هذه الفئة فيما هو نافع على المستوى الفردي والمجتمعي، وحل المشاكل الاجتماعية غيرها. - الاهتمام بالجانب الإعلامي؛ كونه يمثل الوسيلة العظمى في التعبئة على الأفكار المنحرفة، وتسهم في التلقي المخالف لمنهج الأصيل في فهم الدين، وهذا يستدعي أن يسهم المختصون إلى وضع برامج إعلامية وإرشادية ذات بعد متواصل وليس مؤقتاً، يكون أثرها في المنظور البعيد.

- ضرورة التواصل بين النخب العلمية والفكرية في إطار أمثال هذه المؤتمرات والاجتماعات في صورتها الدورية وليس الطارئة؛ بحيث تساعد في التوصل إلى قواعد عامة وأطر كلية تحكم المفاهيم وتوصلها.

- الإشراف على المناهج بشتى صورتها سواء كانت مدرسية أو جامعية، أو مناهج مراكز علمية ودعوية وما شابه ذلك، بغية توحيد الرؤى المفاهيمية ودفع الإشكاليات المتعلقة بمفهوم الوسطية وأمثاله سواء في الجانب التنظيري والجانب العملي.

- الاهتمام بفئة الشباب؛ كونها الغالب عليها التأثير بمناهج الإرهاب والغلو، وهو ما يؤدي إلى إشكاليات منهجية وعملية، ما من شأنها زعزعة المجتمع وخلخلة أركانه، والاهتمام